الأخـــلاق الديكارتية

بمناسبة مرور ٣٠٠ سنة
على وفاة الفيلسوف ديكارت

للأستاذ محمد محمود زيتون

ديكارت فيلسوف ، حظه من الفلسفة رحب الجوانب مترامي الأطراف ، وله من الإلمام بالتراث الفلسفي القديم نصيب موفور . فقد أحاط خبرا بسابقيه إحاطة تختلف سعة وضيقا ، ومع هذا كله فله مذهبه الخاص به في كل ضرب من ضروب الفلسفة . إذ الفيلسوف الحق إنما تخلد آثاره لا بما فهم وهضم من تراث ماضيه فحسب، بل بما أضاف من جهده قيمته إلى هذا الماضي إضافة من شأنها أن تجعل المذهب الفلسفي كالكائن الحي له صفات النمو والنشور

هكذا كان ديكارت ، فإن له لآثاره وابتكاره اللذين تميزبهما ولاسيما فيما نحن بصدده أي الأخلاق ولا بأس من عرض سريع للتعرف على ميزة الأخلاق عند القـــدامى قبل استيضاح معالم الأخلاق عند ديكارت .

نعم كان علم الأخلاق عند القدامى علما عمليا يفترض إحاطة تامة بشتى ضروب المعرفة من الطبيعة وما وراءها ، والسيكولوجيا وغيرها ، فسقراط يقول « اعرف نفسك بنفسك » ويشـــد أفلاطون « العدالة » النفسية ليبنى عليها العدالة السياسية ، ويقيم أرسطوبنيان أخلاقه على علم النفس ، ولا يشذ عن أستاذه في نشدان « الفضيلة التي ليست شيئا آخر غير الوسط العدل بين طرفين» فهم ثلاثتهم يقصدون إلى « الخير » كما عند سقراط ، أو « السعادة » كما عند أفلاطون ، أو « الحكمة » عند أرسطو .

وعلى هذه الوثيرة سار التابعون لفلاسفة اليونان والآخذون عنهم من رواقيين وغير رواقيين وامتد الشعاع من الرواقية حتى وصل إلى ديكارت فتلمسه ثم تأثر به سلبا وإيجابا .

وإذ أحس ديكارت بضرورة الحاجة إلى إتمام صرحه الفلسفي كان لا بد له من أن يصنف العلوم تصنيفا هو بمثابة الهيكل أضلاعه مرتبة على جوانبه، فقد ارتأى أن العلم شجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا ، وفروعها الطب والميكانيكا والأخلاق ، وهو آخر مراتب الحكمة والعلوم لأنه يتطلب البحث والإحاطة التامة بكل ضروب المعرفة ، فهو لذلك أعقد العلوم ، أما وقد جد في الطبيعيات والميكانيكا والطب ولم ينته بعد من هذين الأخيرين فقد آثر ديكارت الانتظار .

ومن أجل تجديد المسكن الذي ارتأى وجوب القيام فيه ، وجب قبل عنه أن يأوي إلى أخلاق موقوتة Morale provisoire هي بمثابة المسكن المؤقت حتى يتم له هدم ما أراد هدمه ، وبناء ما أراد بناءه ، فماش ديكارت وما ترك لنا إلا هذا المسكن الموقوت الذي سكن إليه ربثما يتم الأس ، فلم يتح له ذلك . ومع هـذا فإن هذه الأخلاق تستحق العناية لإمكان الاستدلال منها على كثير من جوانب الحياة التي اكتنفت ديكارت في شخصه ومجتمعه معا.

وثمت مسألة لها قيمتها وهي الخاصة بالعلاقة بين الفلسفة والحكمة من ناحية ، والأخلاق والسعادة من ناحية أخرى. أما الحكمة فإنها مرتبطة بالفلسفة ارتباطا وثيقا . يقول في كتابه عن « القواعد » وكلمة فلسفة تعني دراسة الحكمة . وليست العلوم بأسرها إلا الحكمة الإنسانية التي تبقى هي هي دائما» ، والحكمة — فضلا عن تضمنها للحكمة العملية — ، فإنها المعرفة التامة بكل الأشياء التي يتسنى للانسان المعرفة بها . وإذا كانت الفلسفة هي دراسة الحكمة فهل اللفظان مترادفان ؟ كلا . فالفلسفة هي « الحكمة » من حيث هي « عملية » ، والأخلاق هي آخر درجة وأبعدها في الحكمة ، كما يقول ديكارت في مقدمة كتابه « المبادىء » .

وبين الأخلاق وعلم النفس صلة وثيقة ، فلنتعرف على أحوال النفس وأحوال البدن ثم على ما بينهما من تفاعل . وكل ذلك نتلمسه بوضوح في رسائل ديكارت إلى الملـــكة كرستين Christine والأميرة إليزابث Elisabeth فضلا عن « بحثه في الانفعالات »، وفي هذه الينابيع الثلاثة عرف ديكارت لب الأخلاق من حيث هي السلوك الإنساني على أساس قوي من السلوك النفساني .

وعند ديكارت ألفاظ أخلاقية هي : الكمال والخير الأسمى والسعادة والنعيم المقيم واللذة والنظر والعمـــل والحرية والفضيلة والمعرفة والإرادة . ودراسة هذه الألفاظ ومدلولاتها عنده والصلة

بينها وبين بعضها كل ذلك إدراك للعقد التى تجمع بين أطراف الأخلاق الديكارتية :

يعرف ديكارت الخير الأسمى بالكمال إذ الخير الأسمى هو الحصول على كل الكمال الذى كل فعل خلق خليق به [١] والخير الأسمى لا يتضمن أى وسيلة للسعادة ، ولذلك هما متباينان أشد ما يكون التباين ، ولا يتردد ديكارت لحظة فى الفصل بين الخير الأسمى وبين الله فيقول « من الممكن اعتبار طيبة كل شىء فى ذاتها بدون ربطها بغيرها مما يكون معناه واضحا ، لدرجة أن الله هو الخير الأسمى لأنه أكمل الموجودات حيث لا شبيه له فى هذا » ثم هو كذلك يبعد معنى الخير الأسمى عن المعنى الأفلاطونى أى المثل الأعلى والمعيار الثابت للعمل الإنسانى ... وعندما نراعى فكرة الخير لاستخدام قاعدة لأعمالنا فإنا نأخذها على أنها الكمال التام » (٢) .

ويفرق أيضا بين السعادة والنعيم المقيم ، فالسعادة حظ سعيد قد لا يكون من فعلنا ، أما النعيم المقيم فهو نتيجة الحكمة ، وهو يقوم على السرور . وليست المسرات على درجة واحدة من القيمة ، فالسرور كعلاقة ونتيجة للكمال يجب تقديره بحسب ماله من سبب . وبحسب هذا تعدل مسرات النفس وحدها جميع مسرات الإنسان المركب من جسم وروح لأن مسرات الانفعالات معرضة للظهور مقدما أعظم مما سوف لا تؤول إليه . ولهذا فهى تخدعنا . والمسرات عامة تعطينا من الارتياح أكثر من حقيقتها أى هى متعلقة بالكمال الحقيقى ، و « لنعرف تماما كيف يمكن لكل شىء أن يعين على ارتياحنا يجب اعتبار الأسباب التى تنتجها » (٣)

هناك نوعان من اللذة : فمنها ما يتعلق بالنفس وحدها ، ومنها ما يتعلق بالإنسان أى النفس من حيث اتصالها بالبدن ، وهذه الأخيرة تظهر غالبا أكثر مما هى عليه ، وقبل حيازتها يكون الأمل فى جميع السرور وجميع الأخطاء فى الحياة . وبمقتضى العقل يجب أن تقاس كل لذة بمقدار الكمال الذى ينتجها . وإنه لكذلك حين نقيس تلك التى أسبابها معروفة لدينا معرفة واضحة . وغالبا ما يجعلنا الانفعال نعتقد بعض الأشياء الحسنة والمرغوبة . وإن لم تكن هى كذلك . على أننا إذا أصابنا كثير من الألم وفقدنا فرصة الحصول على خيرات أكثر تحققا فان المتعة تعرفنا الاخطاء . ومن هنا تأتى العوامل الداخلية كالحسرة والندم ، ولهذا كانت مهمة العقل امتحان القيمة الصحيحة لجميع الخيرات التى يبدو أن الحصول عليها يعتمد بشكل ما على تصرفنا لكيلا — نحتاج أبدا إلى استعمال جميع غاياتنا إلى محاولة أن نتابع تلك المرغوب فيها أكثر من غيرها

فالنعيم المقيم يؤدى إلى اللذة ، ولما كنا لا نستطيع القول ضمنا بأن النعيم المقيم ليس هو الخير الأسمى فانه ليس إلا نتيجة له (١) والنعيم المقيم بعبارة أخرى هو الاتجاه الذى يحتم علينا أن نتبع الخير الأسمى الذى هو الوسيلة لهذه الغاية العليا . وهكذا نرى كيف يتميز ويرتبط كل من السعادة والخير الأسمى .

كيف نعرف الخير الأسمى أو مثال الكمال الذى نتوصل إليه إليه باتباع اللذة ؟ يفرق ديكارت بين المثال الغامض والعام عند الكمال الانسانى . وهذا ما يجب على كل فرد أن يفترضه . أى يفترض المثال الذى يوافق طبيعته ، وفضلا عن هذا فان الخير الواجب اتباعه ليس وحده خير الكل وإنما هو الخير المتعلق بالفرد وحده .

ولما كان من الضرورى أن نفرق بين الخيرات الخارجية وبين الخيرات التى تتعلق بنا ، فان كل الأشياء المتساوية عند الغير ، والخيرات الخارجية تضيف شيئا إلى الكمال والسعادة الدائمة . ولما كانت الخيرات الخارجية لا تدخل تحت نطاقنا فـ — وجب أن تركز رغائبنا فى الخيرات الخاصة بنا . والذى يخص المرء أولا وبالذات هو إرادته . والكمال الذى يجب أن نبحث عنه هو كمال الإرادة على نحو ماينتهى الخير الأسمى الى الفضيلة فيتحد معها .

وإذ نتزع بالارادة نحو الكمال نكون قد فعلنا كل ما نستطيع فعله لمعالجة الخير الأسمى الذى قد حصلنا عليه فعلا حينما أدركنا معه كل ما يتفق مع طبيعتنا أى حينما نكون قد استحوذنا على

١ — من خطابه إلى الملكة كرستين فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٦٤٧
٢ — من خطابه إلى الأميرة اليزابث فى يناير سنة ١٦٤٦
٣ — من خطابه إلى اليزابث فى أول سبتمبر سنة ١٦٤٥

(١) إلى اليزابث فى ١٨ أغسطس سنة ١٦٤٥

الخير الأسمى الحقيق وحده من الخير الذى هو ملك لنا .

أما الفضيلة فهى مجهود الارادة . وهي ليست استعدادا طبيعيا ، ولا وظيفة من وظائف الذهن ويهتم ديكارت بالنية فهو يخرجها حتى تقرب أحيانا من الشخصية الاخلاقية ، فالنية الحسنة الأساسية هى نية معرفة الخير . وتمت فضيلة هى أن يتفق الشخص والموضوع .

والعقل عند ديكارت هو النفس المتعقلة ، والنفس مرآة عليها تظهر الأفكار والحقائق بى أشعة النور الإلهى ويعتقد أن الانفعال غير مستقل عن العمل لا فى النفس ولا فى العالم الجسمانى ، ولا يمكن أن يفهم أحدهما بدون الآخر ، فانهما اسمان مختلفان لحقيقة واحدة ينظر إليها من وجهين . والعقل ليس وحده كل النفس ، ولكنه مزدوج بالارادة ، وديكارت يستخرج الحقيقة واليقين من العقل والارادة معا .

وديكارت لا يقيم للحرية الاعتباطية وزنا لأنها لا توجد ، وإن وجدت فانها أحط درجة للحرية (١) على أن للحرية تعريفا ورد فى « الرسائل السادسة » وهو « أنها ملكة وضعية للجنوح إلى أمر ، واجتناب آخر ، أى اتباعه وتفاديه ، وبعبارة أخرى البزم على أمر أو رفضه . وإذن فالحرية هى ملكة الاختيار بمعنى أننا إما أن نقبل الشىء أو نرفض ولما كانت الارادة والحرية شيئا واحدا فانهما يعتمدان على الأفكار « فنحن لا نريد شيئا لا نعلم عنه شيئا » (٢) ، وشىء عام جدا هو أن العقل محدود ، أما الارادة فلا حدود لها (٣) فالعقل لا يتأمل إلا جزاء فقط من الحقيقة ، أما الارادة فانها تتعلق بكل شىء سواء فى مظاهرها أم فى حقائقها .

ثم يتسامى ديكارت إلى أفق الميتافيزيقا فيفرق بين الحرية الانسانية والحرية الالهية ، فالأولى تبحث عن الحقيقة التى خلقتها الثانية . والارادة والمعرفة عند الله شىء واحد ، وعند الانسان : الارادة مقدرة مطلقة دون المعرفة .

والايمان ـ عند ديكارت وعند معظم معاصريه ـ يكفى لتوجيه الحياة ، وهو يقول « بما أن ارادتنا التى لا تهتم إلا باتباع أمر أو عدم اتباعه حسب ما يصوره لنا العقل حسنا أم سيئا ، فانه ليكفى أن نحسن الحكم لنحسن العمل . وأن نحكم أحسن ما نستطيع أى للحصول على جميع الفضائل » (٤)

هذا هو موجز التخلق عند ديكارت ، فاجادة الحكم هو إجادة العمل ، وبما أن الوضوح هو القاعدة الأولى لأحكامنا ، وأن الوضوح علامة الحق ، وأن الخير هو الحق ، فكذلك أعمالنا لها ما الزمناها من القواعد ، فليس هناك حقيقة علمية تنظم وابط أعمالنا ، وإنما الحقيقة واحدة نظرا وعملا ، فالارادة الحرة تحددها أفكارنا التى ليست نظرية وعملية ، هى شىء واحد ولا فضل لاحداهما على الأخرى . إذ الأولى قيمتها فى العظمة ، والأخرى قيمتها فى الكمال كما يقول ملبرانش .

ومن أجل هذه الطرافة التى أتى بها ديكارت بشأن حرية الارادة استحق أن يسمى « فيلسوف الحرية » . وكلمة الحرية هنا وعند ديكارت ذات معنى حر إذ تمتد من النفس الانسانية حتى تنتهى إلى الحرية السياسية .

وبهذا تكون الأخلاق الديكارتية ترجمة لنظريته فى المعرفة ، إذ يرى ـ وقد سبقه سقراط ـ أن الجهل والرذيلة شىء واحد . كما أن العلم والفضيلة شىء واحد ، فرؤية الحق بوضوح هى إرادة الخير مباشرة ، والرذيلة خطأ ، والخطأ ناشىء عن معميات وأوهام وأضاليل ، فنحن لا نرى الشر بوضوح ، والشر الذى نرتكبه يتمثل دائما فى صورة الخير « فاذا نحن رأيناه واضحا كان محالا أن نأثم حين رأيناه على ذلك النحو ، ولذا قيل الخطأ جهل ، وكل خطأ يرجع إلى آرائنا ونزعاتنا ورغباتنا . ومهما يكن من شىء فنحن لا نقدر إلا على أفكارنا » .

وتتضح بذلك خصائص الأخلاق الديكارتية وتتركز فى كونها « معرفة عاملة » فضلا عن أنها علم معيارى لأنه يضيف الحرية ومثالا واضحا للواقع ، بل هى علم للنظام المثالى .

والتخلق هو أن كل موجود وكل فعل يجب ان يضع فى نصابه ، والوظيفة الحقيقية للارادة هى أن نتوسل بالنية إلى هذا

---

(١) التأملات الأولى (٢) الرسائل الثامنة
(٣) التأملات الأولى
٣٤ ، ٣٤

(٤) المقال عن المنهج

النظام ، ومعرفة هذا النظام هي إذن ذات الشأن العظيم ، فالرغبة في معرفة النظام ، ثم الرغبة في اتباعه هو أساس التخلق عند ديكارت ، وإذن فالبرجاتزم على أوضح صورة متحقق في الأخلاق الديكارتية العملية .

ويعنى ديكارت بالانفعالات بغية ترويض النفس تبعا لمعرفة هذه الانفعالات . وبذلك نستفيد منها في غرس عادة جديدة ونزع أخرى ولا سيما أن النفس الانسانية هي القابلة للتعود والتخلق .

والانفعالات بطبيعتها توجه الارادة قبل العقل لكسب معارف جديدة (الدهشة) ، والبحث فيما هو نافع لنا (الحب) والهرب مما هو غريب عنا (الكره) ، ولكن هذه الاتجاهات تستمد أيضا من الأحكام على الخير والشر ، وهذه الأحكام شأنها في ذلك شأن الانفعالات التي تبقى في حدودها الطبيعية ، وإنما هي أحكام حقة ، ولكن يندر أن تكون كذلك .

وبعد ، فهل من سبيل إلى التعرف على سلوك ديكارت ، ونحن نعلم أن مذهب الفيلسوف قطعة من حياته ؟ الحق أن قراء ديكارت يختلفون كثيرا على نص واحد يكتبه ، فهو في المقال عن المنهج بصدد الحديث عن القسم الأول يقول « وأمل أن يكون هذا الكتاب نافعا للبعض دون أن يضر أحدا ، وأن يرضي عني الجميع لصراحتي » . هذه الجملة البسيطة ، تحمل من اللفتات التهكمية اللاذعة ما لا يستطيع قارىء أن يمر به مر الكرام . إذ هو يتواضع تواضعا جما في عرضه لآرائه على الناس ، وهو إذ يقصد إلى أن يتبع الناس جميعا هذا المنهج الذي انتهجه نراه يتخفى وراء هذه الغاية فيتخذ من تواضعه ما يشف عن رغبته هذه . وهو أيضا يعبر عن نفسه بأنه صريح . والواقع أن هذه ليست صراحة ، إنما هي تقنيع للفكرة التي لا يريد التصريح بها حذر الوشاة والحراصين .

وديكارت بهذا يقوم — كما يقول كويريه بدور Koyré(١) « المناورة الساطية » ومصداق ذلك قوله « ... لم أكتسب من اجتهادي في التعليم إلا أنني وجدت شيئا فشيئا »(٢) ولقد سئل سقراط عما يعرف فقال « كل ما أعرف هو أنني لا أعرف شيئا » .

ثم هو إذ يعرض للفلسفة يتناولها بالتجريح في لباقة وحرص لأنها « تعطينا وسيلة ... لكسب الاعجاب ممن هم أقل منا علما » وهو يهكم بالسفسطائيين المعاصرين له .

ويعرض ديكارت بفساد النظم السياسية المعاصرة فيقول « أما ما في نظم الدولة من عيوب — إن كان في نظمها عيوب ، والخلاف بينهما كاف لاثبات كثير من العيوب في كثير منها — فإن التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها ، وتلافى منها رويدا رويدا ما لم يكن مستطاعا بالحكمة . ثم إن تلك العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها كالطرق الملتوية بين الجبال تتمهد شيئا فشيئا لكثرة التردد عليها . وخير للسائل أن يذهب في طريق أكثر استقامة ، متسلقا فوق الصخور منحدرا إلى بطون الوهاد »(١)

وفي هذا من الغمز والتعريض ما لو شرح لفقد قيمته التعبيرية والتفكيرية معا . وهو لهذا يعد صاحب « ثورة سياسية » لا « ثورة فكرية » فحسب ، كما يرى بعض المؤرخين اعتمادا على افتتاحية المقال عن المنهج . فإن ديكارت — في نظري — كفلاسفة اليونان إذ نشدوا الاصلاح الاجتماعي فبدأوا بتغيير عقلية المجتمع على أسس فلسفية ؛ وكذلك كان ديكارت .

واختلف الناس في أمر هذا الثائر الجبار الذي اتخذ شعاره « عاش سعيدا من أحسن الاختفاء » ، ولم يحاول أحدهم أن يعذر ديكارت في مناوراته الفكرية .

ومع ذلك فإنه إذ ينشد الاصلاح يرى أن « من المفيد أن نعرف شيئا عن أخلاق الأمم المختلفة حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لا نظن أن كل ما خالف عاداتنا هو سخرية ، ونخالف العقل كما هو دأب الذين لم يروا شيئا » الذين لم تتجاوز معارفهم حدود بلادهم . لهذا ساح ديكارت حول « الكتاب الأكبر » واستفاد من أسفاره ما حقق له غرضه .

وما كان ديكارت ليمشق الجاه ، بل لقد بغض إليه — على

---

١ — المقال عن المنهج: القسم الثاني

La méthode 2 Trois lexons sur Descartes